المفكّـرة الحمـراء

پول أوستر

پول أوستر واحدٌ من الكتّاب الأكثر جدارةً وتجريباً في عالم الرّواية الأميركيّة المعاصرة. وهو مؤلّف «ثلاثيّة نيويورك»، وفي «بلاد الأشياء الأخيرة» (صدرتا بالعربيّة عن دار الآداب)(*)، و«موسيقى الصُّدفة»، وغيرها. والصّفحات التّالية جزءٌ من مجموعة مقالات ومقابلات ومقدّمات ستصدر قريباً في كتاب واحد لـ «أوستر» عنوانه «فنّ الجوع». وقد نُشرت «المفكّرة الحمراء» في مجلة Granta، العدد ٤٤، صيف ١٩٩٣. وهذه «المفكّرة» فريدة في مزجها بين الواقع، والصّدْفة، والنّظريّة الروائيّة، والتّحليل النّفسي. وقد يظنّ البعضُ ـ للوهلة الأولى ـ أنّ الصّفحات التّالية شبيهة بفيلم لا ترتبطُ أجزاؤه إلّا بوساطة الصّدْفة. لكنّ «أوستر» يصرّ ـ فيما يبدو ـ على أنّ الحياة هي ذلك بالضّبط، وأنّ الرّواية هي «انكتابٌ» لما يحدث ممّا يُتوقّع وممّا لا يُتَوَقّع. وقد يصدف أن يغفل كاتِبٌ ما هذه الحقيقة؛ ولكنّ الرّوايات ستظلّ «تكتب ذاتها» إذّاك ـ على حدّ تعبير أوستر ـ رغم غياب مؤلّفها، غيْرَ غافلةٍ عن «مبدإ الصّدْفة».

ـــــ سماح . . .

عامَ ١٩٧٣ عُرِضَتْ عليّ وظيفةُ العنايةِ ببيتِ مُزارعٍ في جنوبي فرنسا. وبَدَا لي أنّ علاقتي العاطفيّة، المترجّحة بيْن الاستمرار والانقطاع، بامرأةٍ شابّة اسمُها «ل»(**) قد تجدَّدَتْ، فقرّرنا أن نتعاون ونستلِم الوظيفَةَ معاً. وكُنّا إذّاك قد أفْلَسْنَا، ولو لم تُعْرَضْ علينا هذه الوظيفة لكانَ علينا أن نعود إلى أميركا ـ وهو ما لم يكن أيٌّ منّا مستعدّاً له بَعْدُ.

كانَ المكانُ جميلاً: بيتٌ كبيرٌ مصنوعٌ من الحجارة، ويعود إلى القرن الثّامن عشر، مُسَيَّجٌ بالكروم على الجانب الأوّل وبغابة عامّة على الجانبِ الآخر. وكانت أقرب قريةٍ إلينا تبعد كيلومتريْن عنّا، لكنّها لم تكن مسكونةً بأكثر من أربعين شخصاً لا يقلّ عمرُ أيٍّ منهم عن السّتّين أو السّبعين. وهكذا فقد كان البيتُ بقعةً مثاليّةً لكاتبٍ شابٍ وكاتبة شابّة ليقضيا فيها عاماً. وقد عملنا ـ أنا و«ل» ـ بكدٍّ هناك، فأنجزنا ما لم يكن أيٌّ منّا يعتقد أنّ من الممكن إنجازَه.

غير أنّنا عشنا باستمرار على شَفا الكارثة. فقد كان ربّا عملنا ـ وهما رجلٌ وامرأةٌ أميركيّان يعيشان في باريس معاً ـ يبعثان إلينا بمعاش شهري قليل (قدره خمسون دولاراً)، وببدلٍ لبنزين السيّارة، وبمالٍ نُطْعِمُ بِهِ كلبَيْن من فصيلة «اللبرادور» كانا جزءاً لا يتجزّأ من أهل الدّار. وبشكل عام، فقد كانت التّرتيباتُ كريمةً بحقّنا: فلم يكن علينا أن ندفع إيجار البيت؛ ولئن عجز معاشُنا عن أن يفي بمتطلّبات عيشنا الأساسيّة في كلّ شهر، فإنّه كان يوفّر لنا حافزاً في بداية الشّهر الّذي يليه. وكانت خطّتُنا تقضي بأن نكسب بقيّة ما نحتاجُ إليه بالتّرجمة. فقبل أن نترك باريس لنستقرّ في الرّيف، كنّا قد رتّبنا لنفسيْنا عدداً من الوظائف تتكفّل بمصاريفنا على امتداد العام؛ غير أنّنا لم نأخذ في الحسبان أنّ النّاشرين غالباً ما يتباطأون في تسديد فواتيرهم؛ ونسينا كذلك أنّ الشّيكات المُرسَلَة من بلدٍ إلى آخر قد تستغرق أسابيعَ قبل أن تتوفّر لمحصّليها، وأنّها ما إنْ تتوفّر حتّى تتناقص بسبب عمولات البنُوك ورسوم التّحويل.

(*) تُراجع أيضاً المقدّمة الممتازة للرّواية الأولى، وقد وضعها الأستاذ كامل يوسف حسين وتشمل مجمل أعمال «أوستر».

(**) غنيّ عن البيان أنّ «L» تُلفظ ككلمة Elle، ومعناها «هي» بالفرنسيّة (المترجم).

ولمّا كنّا، أنا و«ل»، لم نترك لنفسَيْنا أيَّ هامشٍ للخطإ [يعيننا على تحمّل خسائر أو مصاريفَ إضافيّةٍ غير متوقّعة] فقد وَجَدنا نَفْسَيْنا نعاني في الغالِب مِن ضنك ماليّ مُيْئِس.

وإنّي لأذكر نوبات النّيكوتين الضّارية، وجسدي العديمَ الحسّ بسبب حاجتي العارمة [إلى النّيكوتين]، وأنا أبحث بين وسائد الكَنَبة وخَلْفَ الخزائن عن قطعٍ نقديّة سَقَطَتْ سَهْواً؛ فأنت تستطيع أن تشتري بثمانية عشر سنتيماً (وهو ما يعادل ثلاثة سنتات أمريكيّة ونصف السّنت) سجائرَ «الپاريزيّن» الّتي تُباع أربعاً أربعاً. وأذكر كيف كنتُ أُطعم الكلبيْن وأنا أُفَكّر أنّهما يأكلان أفضلَ ممّا آكُل. وأذكر نقاشاتي مع «ل» حين كُنّا نفكّر جدّياً في فتح علبة من طعام الكلاب لكي نتناولها للعشاء.

لقد كان دخلنا الآخر الوحيد يأتينا من رجل اسمه James Sugar(*) (وأنا لا أتقصّد أن أُلحَّ على الأسماء المجازيّة، غير أنّ الوقائع هي الوقائع، ولا أملك أن أفعل شيئاً حيالَها). وكان «سُكَّر» يعمل مصوِّراً لمجلّة National Geographic ويتعاون مع واحدٍ من رَبَّيْ عملنا في كتابة مقالةٍ عن المنطقة الّتي نحيا فيها. فالتقط الصُّوَرَ طوالَ شهور عدّة، مسافراً في مقاطعة «پروڤنس» جيئةً وذهاباً في سيّارة اكتراها بمالٍ وفَّرَتْهُ له مجلّتُهُ، فيقضي ليلته في منزلنا كُلَّما كان قريباً منّا. ولمّا كانت المجلّة تقدّم له مالاً لمصروفه أثناء العمل، فقد كان يدسّ في جيوبنا ـ وبإحسان كبير ـ المبلغَ المُخَصَّصَ لمصاريف الفنادق، وهو مبلغٌ يصل إلى خمسين فرنكاً في اللّيلة الواحدة، إذا لم تخنّي الذّاكرة. والحقّ أنّني و«ل» صِرْنا صاحبيْ نُزُله الخاصَّيْن، وكنّا على الدّوام سعيديْن برؤيته لأنّه كان رجلاً ودوداً. لكنّ المشكلة الوحيدة هي أنّنا لم نعلم قطّ متى يصل. فهو لم يكن يُشْعِرُنا بوصوله هاتفيّاً، وقد تمضي أسابيع قبل أن يزورنا ثانيةً. ولذلك فقد تعلّمْنا ألاّ نعتمد على الأستاذ «سُكّر». وكان يأتي من لامكان، فيركن سيّارته الزّرقاء البرّاقة أمام المنزل، ويقضي عندنا ليلة أو ليلتين، قبل أن يختفي مجدّداً. وكان في كُلّ مرّة يغادرنا نفترض أنّها المرّة الأخيرة الّتي نراه فيها.

وجاءتنا أسوأُ اللّحظات في نهاية الشّتاء وبداية الرّبيع. فالشّيكات لم تَصِلْ، وسُرِقَ كَلْبٌ من الكلبيْن، وقَرَضنا تدريجاً ما تبقّى من الطّعام المُدَّخَر في المطبخ، ولم يبقَ لدينا سوى كيس من البصل وقنينةٍ من زيت الطّبخ وعجينةِ فطيرةٍ كان أحدهم قد جاَءَ بها قبل أن ننتقل إلى المنزل (أي أنّها كانت من بقايا الصيف الماضي). ولقد صَمَدنا، أنا و«ل»، طَوَالَ الصّباح وبداية فترةٍ بعد الظّهر، لكنّ الجوع في السّاعة الثّانية والنّصف كان قد استبدّ بنا، فذهبنا إلى المطبخ لنعدّ وجبتَنا الأخيرة. ونظراً لقلّة المواد الغذائيّة المتوفّرة لدينا، فقد كانت الوجبة الوحيدة الّتي بإمكاننا أن نعدَّها هي فطيرةٌ من البَصَل.

بعد أن بقيتْ أكلتنا الجديدة في الفرنِ وقتاً بدا كافياً لإنضاجها، أخرجناها منه ووضعناها على الطّاولة ورُحْنا نحفر فيها. فوجدنا أنّها ـ خلافاً لجميع توقّعاتنا ـ أكلةٌ لذيذة؛ بل أَعتقد أنّنا ذهبنا إلى القول إنّها قد كانت أفضلَ طعام ذقناه في حياتنا. لكنّ قَوْلنا ذاك كان ـ بلا ريب ـ محاولةً واهيةً لرفعِ معنويّاتنا؛ فما إن مَضَغنا من أكلتنا المزيدَ حتّى حلّت الخيْبةُ، واضطُرِرْنا رغماً عنّا ـ وهو اضطرارٌ لم يسبق أن أحسسنا به بهذه القسوة ـ إلى الإقرار بأنّ الفطيرة لم تُطْبَخْ جيّداً وأنّ وسطها ظَلَّ أبردَ من أن يؤكَلَ. ولم يسعنا إلاّ أن نفكّر بإعادتها إلى الفرن عشرَ دقائق أو خمس عشرة دقيقة أخرى. ونظراً لجوعنا، ونظراً لأنّ ما أَكَلْنَاهُ قد استحثّ غددَنا اللّعابيّة، فإنّه لم يكن من السّهل أن نتخلّى عن الفطيرة.

وكظْماً لضيق صدرنا، فقد خرجنا لنزهة قصيرة، معتقديْن أنّ الوقت سيمضي أسرَع إنْ نحنُ اقتلعنا نفسيْنا من بين الرّوائح الجيّدة المنبعثة من المطبخ. ولعلّنا انجرفنا في نقاش عن شيءٍ ما (لَسْتُ أذكره)، ولكنْ بغضّ النّظر عمّا حدث وبغضّ النّظر عن الوقت الّذي قضيناهُ خارجاً، فإنّنا ما إنْ عدنا إلى البيت من جديد حتّى كان المطبخُ عابقاً بالدّخان. هُرِعنا إلى الفرن وأخرجنا الفطيرة، لكنّ الأوان كان قد فات. لقد ماتت وجبتُنا، احترقتْ، وتحوّلتْ إلى كتلة متفحّمة مسوَدّةٍ، وتعذّر إنقاذُ ولو قطعةٍ صغيرةٍ منها.

قد تبدو قصّتُنا مضحكةً الآن، لكنّها لم تكن كذلك آنذاك على الإطلاق. فلقد سَقَطْنا في حفرة سوداء، وعجز أيٌّ منّا عن إيجاد سبيل للخروج منها. وفي السّنوات الّتي صرفتُها مناضلاً في إثبات إنسانيّتي، أشكّ أنّني وجدتُ لحظةً شعرتُ فيها بميلٍ أقلَّ إلى الضّحك والتّنكيت من تلك اللّحظة. لقد كانت تلك هي النّهايةَ حقّاً، وكان ذلك أمراً رهيباً ومرعباً.

حدث ذلك السّاعةَ الرّابعةَ من بعد الظّهر. وبعد أقلّ من ساعة، ظَهرَ الأستاذ الجوّال «سُكَّر» فجأةً، وهو يقود سيّارته باتّجاه المنزل وسط غَيْمَةٍ من الغبار والحصى والأوساخ تقرقش جميعُها من حوله. وإذْ أجتهدُ في التّفكير الآن، فإنّ في وسعي أن أرى حتّى هذه اللّحظة بسمَتَهُ السّاذجَة السّخيفَة وهو يقفز من سيّارته ملقياً علينا السّلام. لقد كانت معجزة، معجزةً حقيقيّة، وكنتُ هناك لأشْهدها بأمّ عَيْني، وكنتُ حتّى تلك اللّحظة أعتقدُ أنّ أموراً كهذه لا تحدث إلاّ في الكُتب.

ودعانا «سُكَّر» للعشاءِ تلك اللّيلةَ في مطعم ذي نجمتَيْن. فأَكَلْنا طعاماً كثيراً وجيّداً، وأفرغنا في جوفنا عدّةَ زجاجاتٍ من النّبيذ، وضحكنا حتّى الجنون. ومع ذلك، وعلى الرّغم من جودة ذلك الطّعام، فأنا لا أذكر منه شيئاً. لكنّي لم أنسَ أبداً مذاقَ فطيرة البَصَل.

ـ ٢ ـ

لم تمض مدّةٌ طويلة على رجوعي إلى نيويورك (في تمّوز ١٩٧٤) حتّى أخبرني أحدُ أصدقائي بالقصّة التّالية: مسرح أحداثها هو

(*) أي: جايمس سُكّر

يوغوسلافيا، والزّمان هو الشّهور الأخيرة من الحرب العالميّة الثانية.

لقد كان عَمُّ [صديقي] «س» عضواً في مجموعة صِرْبيّة سريّة تقاوم الاحتلال النّازي. وذات يوم أفاق هو ورفاقه ليجدوا أنفسهم محاطين بالجنود الألمان، فاحتُجِزوا في بيتٍ مزارع في مكانٍ ما من الرّيف، وكان الثّلج يكسو الأرضَ بعلوّ قدم، ولم يَكن ثمّة مجالٌ للهرب. لم يدرِ الرّجالُ المحتَجَزون ما يفعلون باستثناء القرار بأنْ يُجرُوا قُرْعَةً فيما بينهم. وكانتْ خطّتُهم تقضي بأن يندفعوا خارج البيت واحداً واحداً، فينطلقوا عبر الثّلوج، ويروا إنْ لم يكن بإمكانهم أن يسلكوا طريق السّلامة(*). وكان دور عم «س» ثالثاً.

راقبَ عمُّ «س»، عَبْر النّافذة، الرّجلَ الأوّلَ ينطلق في الحقل المكسوّ بالثّلج. كان ثمّةَ وابلٌ من الرّصاص ينطلق من أسلحة منصوبة في الغابات، ثمّ سَقَطَ الرّجل. وبعد هنيهة، انطلق الرّجلُ الثّاني، وكان مصيره مماثلاً: فقد انفجر الرّصاصُ، ووقع ميّتاً في الثّلج.

ثمّ جاء دورُ عمّ صديقي. وأنا لا أدري إنْ كانَ قد تَرَدَّدَ عند مَدْخل البيت؛ ولا أدري أيّة أفكار كانت تضرب رأسَه تلكَ اللّحظة. كان الأمر الوحيد الّذي أُخْبِرتُهُ أنّه شرع في الرّكض في الثّلوج بكلّ ما أوتي مِنْ قوّة. وبدا أنّه قد ركض إلى ما لانهاية. وفجأة شعر بألمٍ في ساقه. وما هي إلاّ هنيهةٌ حتّى انتشر في جسده دفْءٌ طاغٍ، وفقد وعيه.

حين أفاق، وَجَد نفسه مستلقياً على ظهره في عربة فلاّح. لم يخطر في باله كَمْ مضى من الوقتِ ولا كيفَ أُنْقِذَ. فلقد فتح عينيْه، هكذا وببساطة، فإذا به يستلقي في عربة يجرّها على طريقٍ ريفيّة حصانٌ أو بَغْلٌ، وإذا بِهِ يحدّق إلى مؤخّرة رأس فلاّح. تفحّص مؤخّرةَ ذلك الرّأس ثوانيَ عدّةً، ثم سُمِعَت انفجاراتٌ مَصدرُها الغابات. ولمّا كانَ عمّ «س» أضْعَفَ من أن يتحرّك، فقد واصَلَ النّظَرَ إلى مؤخّرة الرّأس، فإذا بالرّجل الّذي كان كاملاً للحظةٍ خَلَتْ يصير رجلاً من دون رأس!

ضجيجٌ أقوى، واضطرابٌ أشدّ. وأنا لا أستطيع القول إنْ كان الحصانُ استمرّ في جرّ العربة أم توقّف. ولكنْ، بعد دقائق وربّما ثوانٍ فحسب، إذا بجنود روس يأتُون مهرولين على الطّريق. سيّارات «جيب»، دبّابات، عشرات الجنود. وحين ألقى قائدُ الوحدة الرّوسيّة نظرةً على رِجْلِ عَمّ «س»، بَعَث به سريعاً إلى مستوصفٍ بُني في الجوار. ولم يكن ذلك المستوصفُ غير كُوخٍ خشبيّ مُخَلّع ـ بيت دجاجٍ ربّما، أو بناء على مزرعةٍ ما. وهناك، أعلن طبيبُ الجيش الرّوسي أنَ السّاق لا يمكن إنقاذُها؛ وقالَ إنّها قد تضرّرتْ ضَرَراً بالغاً، وأنّ عليه أن يقطعها.

(*) تعمّد بول أوستر أن يضع الجملة الأخيرة («لم يكن بامكانهم. . .») بالمعنى السّلبي تدليلاً على أنّ خُطوطَ النّجاة قليلة. والجملة في الانكليزيّة ـ كما في العربيّة ـ مناقضة للمنطق وللّغة، ولكنّ المقصود هو ذاك بالضّبط (المترجم).

وراح عمُّ صديقي يصرخ، ويقول باكياً: «لا تقطعوا رجلي. أرجوكم، أتوسّلُ إليكم، لا تقطعوا رجلي!». لكنّ أحداً لم يُلقِ له بالاً بل شدَّهُ معاونو الأطبّاء إلى طاولة العمليّات، وتناول الطّبيبُ منشارَهُ. وفي اللّحظة الّتي كان يهمّ فيها باختراق جِلْدِ السّاق، دوّى انفجارٌ آخر، فانهارَ سقفُ المستوصف وسقطتِ الجدرانُ وانمحى المكانُ برمّته. ومن جديد فقد عمُّ «س» الوعيَ.

حين أفاق هذه المرّة، وجَدَ نفسه في سرير. كانت الشّراشف نظيفة وناعمة، وكانت ثمّة روائحُ طيّبةٌ في الغرفة، وساقه لمّا تزلْ مَوْصُولةً إلى جَسَدِه. وبعد هنيهة، كان ينظر إلى وجه امرأة شابّة جميلة. كانت تبتسم له وتُلقمه حساءَ اللّحم. وبدا له أنّه قد صحا في الجنّة. لقد أُنْقِذَ ثانيةً، وحُمِلَ إلى بيتٍ آخَرَ من غير أن يعلم كيف جرى ذلك على الإطلاق.

بقي عمّ «س» في المنزل المذكور ووقع في حبّ المرأة الشّابّة الجميلة. لكنّ شيئاً لم ينتج عن هذه الحكاية العاطفيّة. وليتني كنت أعرف السّببَ، لكنّ «س» لم يزوّدني بالتّفاصيل. كُلُّ ما أعرفه هو أنَّ ساقَ عمّه سَلِمَتْ، وأنّه انتقل إلى أميركا ما إن انتهت الحربُ، ليبدأ حياةً جديدة. ولسبب أجهله (فالظّروف غامضة بالنّسبة لي)، صار عمُّهُ بائعَ بوليصات تأمين في شيكاغو.

ـ ٣ ـ

أنا و«ل» تزوَّجْنا عام ١٩٧٤. ووُلِدَ ابنُنا «دانيال» عام ١٩٧٧، لكنّ زواجَنا انتهى في العام التّالي. صحيح أنْ لا علاقة لهذا بموضوع حديثنا الجاري، غير أنّه يهيّئ المشهَدَ لحادثةٍ جَرَتْ في ربيع ١٩٨٠.

كُنّا نعيش في «بروكلين» آنذاك، والواحدُ منّا على بعد شوارع ثلاثة أو أربعة من الآخر وابنُنا يوزّع وقته بين شِقَّتَيْنا. وذات صباح كان عليّ أن أمرّ على منزل «ل» لآخذَ «دانيال» إلى روضة الأطفال. وفي اللّحظة الّتي كنّا نهمّ فيها بمغادرة المنزل، فتحتْ «ل» نافذةَ شقّتها في الطّابق الثّالث لترمي إليّ ببعض المال. لعلّها أرادتْ أنْ أُلْقِمَ العدّاد حيث تقفُ سيّارَتُها قطعاً نقديّةً إضافيّة، أو لعلّها أرادت أن أشتري لها غَرَضاً ما؛ لا أعلم سبب فعلتها بالضّبط. كُلّ ما تبقّى في ذاكرتي الآن هو نافذةٌ مفتوحة، وقطعةُ العشرةِ قروش تطيرُ في الهواء. وإنّي لأرى المشهدَ بوضوحٍ فائق، كأنّني درستُ صورَ تلك اللّحظة، أو كأنّ المشهدَ جزءٌ من حلمٍ يتكرّر منذ ذلك الوقت إلى الآن.

لكنّ القطعةَ النّقديّة اصطدمَتْ بشجرة، فتحوّل اتّجاهُها عن يدي ثمّ ارتدّتْ عن الشّجرة وحطّتْ من غير صوت في مكانٍ ما قريب، واختَفَتْ. وأنا أتذكّر أنّني انحنيْتُ ورحتُ أبحثُ في الشّارع، نابشاً بين أوراق الشّجرة وأفنانها عند أصل الشّجرة. لكنّي لم أعثر على القطعة النّقديّة في أيّ مكان.

أستطيع أن أحدّد زمنَ تلك الحادثة في بداية ربيع ذلك العام، لأنّني ذهبتُ بعدَ ظهرِ اليوم ذاته إلى «ميدان شاي» لأشاهد مباراة «بايسبول»؛ وكانت هذه المباراة فاتحة ذلك الموسم الرّياضي. وقد حصل صديقٌ لي على تذكرتَيْن مجّانيتَيْن، فتكرَّم بأنْ دعاني للذّهابِ معه. ولم أكن قد شاهدتُ مباراةَ افتتاحيّةً قَبْلاً، ولذلك فإنّي أذكر المناسبةَ جيّداً.

وصلنا باكراً (فقد كان علينا أن نأخذ تذكرتَيْنا من شبّاك تذاكر معيَّن). وفي الوقت الّذي ذهب فيه صديقي ليُنهي أمر تذكرتَيْنا، رحتُ أنتظره أمام أحد مداخل الميدان الرّياضي. انزويْتُ في مكان صغيرٍ لأشعل سيجارةً (وكانت ثمّة ريحٌ قويّةٌ تعصف ذلك اليومَ). وهناك على الأرض، وعلى مسافةٍ من رجلي لا تعدو بوصتَيْن، استلقت قطعةٌ نقديّةٌ من فئة العشرة قروش. انحنيْتُ، والتقطتُها، ووضعتُها في جيبي. ومع أن ما سأقوله سيبعث على الاستهزاء، فإنّي كنتُ متيقّناً آنذاك أنّها القطعةُ النّقديّةُ الّتي سبق أن أضعتها في «بروكلين» ذلك الصّباحَ بالذات.

ـ ٤ ـ

في روضة الأطفال حيثُ كان يذهبُ ابني، كانت هناك فتاةٌ صغيرة يسعى والدها إلى الطّلاق. وكنتُ أحبُّ أباها، بشكل خاصّ؛ فهو رسّام مكافح يعتاش من رسوم وتخطيطاتٍ معماريّةٍ. وكانت رسومه جميلةً فعلاً، في رأيي، لكنّه لَم يوفّقْ في إقناع التجّار بدعم عمله. والمرّة اليتيمة الّتي عَرض فيها رسومَه، أفلستْ صالةُ العَرْض سريعاً بعدها.

لم يكن «ب» صديقاً حميماً، لكنّنا استمتعنا برفقتنا المشتركة؛ وكنت كلّما رأيته أعودُ إلى البيت حاملاً إعجاباً متجدّداً بحَزْمِه وهدوئه الدّاخلي. ولم يكن ممّن يتذمّرون أو يأسفون على حالِه؛ وأيّاً كانتْ كآبةُ الأمور الّتي نزلتْ به في السّنوات الأخيرَة (من مشاكل ماليّة لا تنتهي، ونقص في النّجاح الفنّي، وتهديدات صاحب الشقّة بطرده منها، وصعوبات مع زوجته السّابقة) فإنّ أيّاً منها لم يخلخلْ نظامَه العام؛ بل واصل الرسمَ بالشَّغَف الّذي لازمه دوماً. وخلافاً للكثيرين فإنّه لم يعبِّرْ قطُّ عن مشاعر المرارة أو الحَسَد تجاه الفنّانين الّذين يقلّون عنه موهبةً لكنّهم يتمتّعون بمراكز أو وظائف أفضل.

وكان أحياناً يذهب إلى متحف المتروبوليتان، حين لا يعمل على لوحاته الخاصّة، فيقلّد صورَ المعلّمين الكبار. وأذكر أنّه حاكى لوحةً لـ «كاراڤاتشيو»(*) استرعت انتباهي بشكلٍ مطلق. لم يكن ما رسمه محاكاةً (copy) بقدر ما كان نسخةً طبقَ الأصل (replica)، نسخةً ثانيةً (duplication) عن اللّوحة الأصليّة. وفي واحدةٍ من تلك الزّيارات إلى المتحف المذكور، رَصَد مليونيرٌ من تكساس «ب» وهو يعمل، فحاز إعجابه إلى درجة تكليفه بأن ينسخ لوحةً لـ «رينوار»؛ وقد أهدى المليونير هذه اللّوحة فيما بعد لخطيبته.

(*) رسّام إيطالي (١٥٠٥ ـ ١٦٠٩) (المترجم).

كان «ب» مفرطَ الطّول (ستّ أقدام وخمسة إنشات، أو ستّ أقدام وستّة إنشات)(*)، حسنَ المظهر، لطيفَ المعشر؛ وهي صفات جعلتِ النّساءَ، بخاصّةٍ، ينجذبْنَ إليه. وحين أنهى معاملات طلاقه من زوجته السّابقة وتنقّل في أرجاء المجتمع، لم يجدْ صعوبةً في العثور على صديقات. وكنتُ أراه مرّتَيْن أو ثلاث مرّاتٍ في السَّنَة؛ فأعثر على امرأةٍ جديدة في حياته في كُلّ مرّة. وكُنّ جميعهنّ مولعاتٍ بِه، لكنّ أيّاً من علاقاته لم تستمرّ فترةً طويلة، لهذا السّبب أو ذاك.

بعد عامين أو ثلاثة أعوام، نفّذ مالكُ المنزل تهديداته، وطَرَدَ «ب» منه، فغادر المدينة وانقطع الاتّصالُ بيننا.

ومضتْ سنوات أخرى، وذات ليلة عاد «ب» إلى المدينة ليحضر حفلة عشاء. كنّا أنا وزوجتي هناك أيضاً. ولمّا علمنا أنّ «ب» في سبيله إلى أن يتزوّج فقد طلبنا إليه أن يخبرنا بقصّة لقائه بزوجته المرتقبة.

قال إنّه قبل ستّة شهور كان يتحدّث مع صديق له على الهاتف. وكان هذا الصّديق قلقاً عليه، وراح بعد برهة يوبّخه لعدم زواجه من جديد. قال له: «لقد طلّقتَ امرأتَكَ منذ سبع سنوات، وكان من الممكن أن تستقرّ منذ ذلك الحين مع واحدةٍ من عشرات النّساء الجذّابات المميَّزات، لكنّك صرفتهنّ جميعاً. ولم تكن أيّةُ واحدةٍ منهن لتلائمك. فماذا دهاك يا «ب»؟ ماذا تريد بحقّ السّماء؟»

ـ «لا شيء»، قال «ب». «الأمر ببساطة هو أنّني لم أعثر على الشّخص الملائم. هذا كلّ شيء».

ـ «إذا صَحَّ هذا فإنّك لن تعثر عليها مطلقاً»، أجابَ الصديق. «أعني، هل صادَفْتَ امرأةً تشبه ما تبحث عنه؟ سَمِّ لي واحدةً. أتحدّاك أن تسمّي واحدة».

اعترى «ب» ذهولٌ من حدّة صديقه. فتوقّفَ ليتأمّلَ السؤال بعناية. نعم، قال أخيراً، هناك امرأةٌ واحدة، امرأةٌ اسمُها «إ» كانَ يعرفها حين كانَ طالباً في جامعة هارڤرد قبل أكثر من عشرين سنة. لكنّها كانت على علاقةٍ برجل آخر في ذلك الزّمن، وكان هو [أي «ب»] على علاقة بامرأةٍ أخرى (هي الّتي ستصير زوجتَه السّابقة)، ولم يحدُث أيُّ تطوّر بينهما. لم تكن لديه أيّة فكرة عن مكان «إ» الآن، قال لنفسه، لكنّه لن يتردّد في أن يتزوّج مرّةً أخرى إنْ هو التقى بواحدةٍ مثلها.

وكانت تلك هي خاتمة الحوار. فحتّى اللّحظة الّتي ذكر فيها «ب» صديقَتَه «إ» أمام صديقه، لم يكن «ب» قد فكّر طوال أكثر من عشرة أعوام في هذه المرأة. لكنّها إذ تطفو مجدّداً على سطح خياله الآن، فإنّه يجد صعوبة في أن يفكّر بأيّ أمرٍ آخر. ولقد فكّر بها بشكل ثابت على امتداد الأيّام الثّلاثة أو الأربعة التّالية، عاجزاً عن أن ينفض عنه الشّعُورَ بأنّ فرصته الوحيدة في السّعادة قد ضُيِّعَتْ قبل سنوات كثيرة. وفجأةً، وكأنّ حدّة هذه الأفكار بَعَثَت بإشارةٍ ما إلى العالم، رنّ جرسُ الهاتف

(*) أي ١٩٧ سنتماً أو أقلّ من ذلك بقليل (المترجم).

ذات ليلة. وكانت «إ» على الطّرف الآخر

ألقاها «ب» على الهاتف أكثر من ثلاث ساعات. لم يكدْ يعرف ما قال لها، غير أنّه راح يتحدّث إلى ما بعد منتصف اللّيل، وفي يقينه أنّ أمراً بالغ الأهميّة قد حدث وأنّه لا ينبغي أن يدعها تهرب هذه المرّة.

والحال أنّ «إ» بعد أن تخرّجتْ من الجامعة التحقت بفرقة راقصة، وكرّستْ نفسها لعملها طوال عشرين عاماً. لم تتزوّجْ قطّ، وهي الآن على وشك أن تتقاعد من عملها راقصةً؛ فهي تتّصل بأصدقائها القدامى ساعيةً إلى أن تجدّد اتّصالها بالعالم. لقد فقدتْ عائلتها (قُتل أبواها في حادث سير حين كانت طفلةً) فتولّتْ رعايتَها عمّتان لها هما من بين الأموات الآن.

رتّب «ب» موعداً للقائها في اللّيلة التّالية. وحين جلسا معاً لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى اكتشف «ب» أنّ مشاعره نحوها كانت بالقوّة الّتي تخيّلها منْ قبل. لقد وقع في حبّها من جديد، وبعد أسابيع عدّة تَمّتْ خطبتُهما تمهيداً لزواجهما.

ولكي تكون الحكايةُ أكثر كمالاً ممّا هي عليه حتّى الآن، اتّضح أنّ «إ» تريّةٌ. فقد كانت عمّتاها ثريّتَيْن، وورثتْ بعد موتهما كلّ أموالهما. وهذا يعني أنّ «ب» لم يعثر على الحبّ الحقيقي فحسْب، بل اختفتْ كذلك ـ وعلى نحوٍ فجائي ـ المشاكلُ الماليّة القاهرةُ الّتي نزلتْ به سنينَ طويلة. ولقد حدث كلُّ هذا دفعةً واحدة.

بعد عامٍ أو عامَيْن على زواجهما رُزِقا بطفل. وفي التّقرير الأخير، فإنّ الأم والأب والطّفل عاشوا عيشة هنيئة

ـ ٥ ـ

منذ اثنتي عشرة سنة سافرتْ أختُ زوجتي للعيش في تايوان، وفي نيّتها أن تدرُسَ اللّغةَ الصينيّة (الّتي تتكلّمها اليومَ بطلاقة مُذهِلَة) وأن تُحوِّل نفسَها بتعليم الإنكليزيّة لصينيّين في تايبي. كان ذلك قبل عامٍ واحدٍ تقريباً على لقاء زوجتي، الّتي كانت آنذاك تلميذةً تتابع دراساتها العليا في جامعة كولومبيا في نيويورك.

ذات يوم كانت أختُ الّتي ستصير زوجتي تتحدّث إلى صديقة لها أمريكيّة، صديقة شابّة سافرتْ هي الأخرى إلى تايبي لتدرس الصينيّة. وتطرّق الحديثُ إلى عائلتيْهما في الوطن الأمّ، وأدّى هذا الحديث بدوره إلى الحوار التّالي:

ـ «لي أختٌ تعيشُ في نيويورك»، قالتْ أختُ الّتي ستصير زوجتي.

ـ «وأنا كذلك»، ردّتْ صديقتها.

ـ أختي تعيش في الجانب الغربي الأعلى من المدينة

ـ وأختي كذلك.

ـ أختي تعيش في الجانب الغربي من شارع ١٠٩.

ـ صدّقي أو لا تصدّقي، أختي تعيش هناك كذلك

ـ أختي تعيش في عمارة رقم ٣٠٩ الكائنة في الجانب الغربي من شارع ١٠٩.

ـ وأختي كذلك!

ـ أختي تعيش في الطّابق الثّاني من عمارة ٣٠٩ الكائنة في الجانب الغربي من شارع ١٠٩.

أخذتِ الصّديقةُ نَفَساً عميقاً، ثمّ قالت. «أعلمُ أنّ ما سأقوله سيبدو ضرباً من الجنون، لكنّ أختي تعيش هناك كذلك».

أنْ يجد المرءُ مدينتيْن تبعد الواحدةُ منهما عن الأخرى بُعْدَ تايبي عن نيويورك لَهُوَ أمرٌ يكاد أن يكون مستحيلاً. فالمدينتان تقعان على طرفي الأرض المتقابلَيْن، وتفصل بينهما مسافةٌ تتجاوز عشرةَ آلاف ميل، وحين يكون اليومُ نهاراً في الأولى يكون ليلاً في الأخرى. وإذ كانت المرأتان الشّابتان في تايبي تتبادلان الدّهشة بسبب الصّلة المذهلة الّتي كشفتاها للتوّ، فقد رجّحتا أنّ أختيهما نائمتان في تلك اللّحظة. والحقّ أنّ كُلاًّ منهما كانت نائمةً في شقّتها في الطّابق نفسه من البناية نفسها في شمالي مانهاتن في نيويورك، غافلتيْن عن الحوار الّذي يدور بصددهما على الطّرف الآخر من العالم.

لم تكن الأختان القاطنتان في نيويورك على معرفةٍ الواحدة منهما بالأخرى، رغم رابطة الجوار. وحين التقتا (بعد عامَيْن) لم تكن أيٌّ منهما تعيشُ في تلك العمارة.

في ذلك الوقت كنتُ أنا و«سيري» قد تزوّجنا. وذات ليلة كُنّا في طريقنا للقاء شخص ما فعرّجنا على مكتبة في جادّة بروادواي لكي نتصفّح بعض الكتب دقائق قليلة. ولابدّ أنّنا تنقّلنا بين ممرّات مختلفة. ولا أذكر إنْ كانت «سيري» أرادت أن تريني شيئاً أو كنت أنا من أراد أن يريها شيئاً، ولكنْ أيّاً يكن الأمر فقد نطق الواحدُ منّا باسم الآخر عالياً. وما هي إلاّ هنيْهة حتّى هُرِعتْ امرأةٌ إلينا. «أنتَ بول أوستر، وأنتِ سيري هوستاد، أليس كذلك؟». قلنا: «هذا بالضّبط من نكون. كيف عرفتِ ذلك؟». فشرحتْ لنا المرأةُ أنّ أُختها وأُخت «سيري» كانتا تلميذتين معاً في تايوان.

لقد أُحكمتِ الدّائرةُ أخيراً. ومنذ تلك اللّيلة في المكتبة لعشر سنوات خلت، أصبحتْ هذه المرأة واحدةً من أفضل أصدقائنا وأشدّهم إخلاصاً.

ـ ٦ ـ

«س» شاعرٌ فرنسيّ ويعرف واحدُنا الآخرَ منذ ما يزيد على العشرين عاماً. ورغم أنّنا لا نتقابل مراراً (فهو يعيش في باريس وأعيش أنا في نيويورك) فإنّ الرّباط بيننا لمّا يزل قويّاً. إنّه رباطٌ أخويٌّ، بشكلٍ أو بآخر، لكأنّنا كنّا أخويْن حقيقيّين في حياة سابقة.

ينطوي «س» على تناقضات شتّى. فهو منفتح على العالم ومنغلق عنه في الوقت عينِه؛ وهو شخصيّةٌ كاريزميّة [ساحرة] محاطة بالأصدقاء من كلّ صوب (فهو مشهور بحنانه، ومزاحه اللاّئق، وحديثه) لكنّه امرؤ جرحته الحياةُ فراح يكافح من أجل إنجاز مهمّات بسيطة يُسلِّم بها معظمُ

النّاس الآخرين. وعلى كونِهِ شاعراً موهوباً ومفكّراً في الشّعر، فإنّه يواجه عوائقَ كتابيّةً متعدّدة ونزعاتٍ سقيمةً من الشكّ بالذّات، ويواجه أيضاً ـ وهو ما يبعث على الاستغراب لكون «س» شديدَ الكرم ـ قدرةً على تحمُّل النزاعات والأحقاد القديمة النّاتجة عن مبدأ مجرَّدٍ أو نافِهٍ.

ليس ثمّة من يحظى بالإعجاب العام أكثر ممّا يحظى به «س»، وليس هناك من هو أشدُّ موهبةً وقدرةً على استرعاء الانتباه؛ ومع ذلك فقد جهد في أن يهمِّش نفسَه. فمنذ انفصاله عن امرأته لسنواتٍ كثيرةٍ خَلَتْ، وهو يعيش وحيداً في شقق صغيرة ذات غرفة نوم واحدة، على مبلغ من المال يكاد أن يكون لا شيء، ووظائف متقطّعة؛ فلا ينشر إلاّ القَليل ويرفض أن يكتب كلمةً واحدةً في النّقد رغم أنّه يقرأ كلَّ شيء ويملك معرفة بالشّعر المعاصر تفوق معرفةَ أيٍّ كانَ في فرنسا. وبالنّسبة لأولئك الّذين يحبُّون «س» (ونحن كُثُر)، فإنّه غالباً ما يشكِّل لنا مصدرَ قلق؛ فبقدر ما نحترمه ونحرص على ما فيه صلاحُهُ، فإنّنا نقلق عليه أيضاً.

لقد عاش طفولةً شاقّة. وأنا لا أدري المدى الّذي تفسِّرُ بِهِ هذه الحقيقةُ أيَّما أمرٍ، لكنّنا ينبغي ألاّ نتجاهل الحقائق في كُلِّ حال. وأمّا أبوه فيبدو أنّه هرب مع امرأةٍ أخرى حين كان «س» لايزال صغيراً. فنما صديقي طفلاً وحيداً، يفتقر إلى حياةٍ عائليّة يتحدّث عنها، وعاش إلى جانب أمّه. لم ألتقِ بأمّ «س» قطّ، لكنّها امرأةٌ غريبة الأطوار، حسب جميع ما وردني من أخبار. فقد انخرطَتْ في سلسلة من العلاقات العاطفيّة أثناء طفولة «س» ومراهقته، وكانت كُلّ علاقةٍ منها تتمّ مع رجل يصغُرُ ذاكَ الّذي سَبَقَ لها أن عاشَرَتْهُ. وحين غادر «س» المنزلَ في الحادية والعشرين من العمر ليلتحق بالجيش، لم يكن صديقُ أمّه ليتجاوزه في السّنّ بكثير. وفي السّنوات الّتي تلتها صارَ هدفُ حياتها الرّئيسي هو القيام بحملة لرفع أحد الكهنة الإيطاليين إلى رتبة القدّيسين (وقد أفلت اسم ذلك الكاهن من ذاكرتي الآن)؛ وأمطرت السّلطات الكاثوليكيّة بوابل من الرّسائل الّتي لا عدّ لها ولا حصر، تُعَظِّم فيها قَداسَةَ هذا الرّجل؛ بل إنّها كلّفتْ فنّاناً ـ ذاتَ يوم ـ بأن يصنع تمثالاً يكون حجمُه بحجمه؛ وها هو التّمثال ينتصب في حديقة منزلها الأماميّة شاهداً دائماً على القضيّة الّتي كافحتْ من أجلها.

لم يكن «س» أباً، لكنّه أصبح أباً زائفاً ـ إذا جاز التّعبير ـ منذ سبع سنواتٍ أو ثمانٍ. فبعد أن اختلف مع صديقته (فانفصلا مؤقّتاً) أقامتْ هذه الصّديقة علاقةً قصيرة مع رجلٍ آخر، وحَمَلَتْ منه، ثمّ انقَطَعَتْ علاقتُها الجديدةُ على الفَوْر تقريباً؛ غير أنّها قرّرت الاحتفاظ بالطّفلة. وعلى الرّغم من أنّ «س» لم يكن أباها الحقيقيّ، فقد كرّس نفسَهُ لها منذ ولادتها، وهو يعبدها كما لو كانت من لحمِهِ ودمه.

وحدث أن زار «س» صديقاً ذات يوم منذ حوالي أربعة أعوام. وكان في بيت هذا الصّديق جهازُ «مينيتيل»، وهو حاسوبٌ صغيرٌ تقدّمُهُ شركةُ التلفونات الفرنسيّة مجاناً. ويتضمّن «المينيتيل» ـ من بين ما يتضمّن ـ عناوينَ جميع النّاس في فرنسا وأرقامَ هواتفهم. وإذْ جلس «س» يعبث بآلة صديقِهِ الجديدة، فقد خطر له فجأة أن يفتّش عن عنوان أبيه، فوجده في «ليون». وحين رجع إلى بيته في نهاية ذلك اليّوم وَضَع واحداً من كتبه في مغلَّف وأرسله إلى ذلك العنوان في «ليون»، مفتتحاً بذلك أوّلَ اتّصالٍ بأبيه بعد ما يزيد على الأربعين عاماً. ولم يكنْ قد خَطر بباله، حتّى تلك اللّحظة، أنّه كان يريد أن يقوم بما قام به للتوّ.

وفي اللّيلة عينها، صادف صديقةً مُحلِّلةً نفسيّةً، في مقهى، وأخبرها بأفعاله الغريبةِ غيرِ المتعمَّدَة تلك. قال لها إنّه أحسَّ كأنّ أباه يناديه، وكأنّ قوّةً غامَضةً في داخله قد انطلقَتْ من عقالها. ونظراً لأنّه لم يكن يحتفظ بأيّ ذكرى عن أبيه، فإنّه لم يكن قد بدأ في تخمين تاريخ آخرِ مرّة شاهَدَ فيها واحدُهما الآخر.

فكّرتِ المرأةُ لحظةً، ثمّ سألت: «كم عُمْر «ل»، وهي ابنة صديقة «س»؟

ـ «ثلاث سنوات ونصف السّنة»، أجاب «س».

ـ «لستُ متأكّدة ممّا سأقوله الآن»، أجابت المرأةُ، «ولكنّي على استعداد لأن أراهن بأنّ عمرك أنتَ قد كان ثلاثةَ أعوام ونصف العام في المرّة الأخيرة الّتي شاهدتَ فيها أباك. أقولُ هذا لأنّكَ تحبُّ «ل» كثيراً؛ وإنّ تماهيك معها قويٌّ جدّاً، وأنتَ تعيش حياتَك من جديد من خلالها».

بعد أيّام قليلة، تلقّى «س» ردّاً من أبيه في «ليون»، وجاء الردُّ على شكل رسالةٍ حارّة ورقيقة للغاية. فبعد أن شكر الأبُ ابنَه على الكتاب المُرْسَل، راح يخبره عن شدّة اعتزازه بأن يعلم أنّ ابنَه قد نما ليصبح كاتباً. وأضافَ الأب أنّ الطَّرْدَ البّريدي الّذي تلقّاه قد وصله ـ ويا للمصادفة البحتة! ـ في عيد ميلاده، وأنّ رمزيّة المبادرة قد هزّتْه كثيراً.

غير أنَّ شيئاً من هذا لم يتطابقْ مع ما كان «س» قد سَمعه عن أبيه طوال طفولته. فقد أخبرتْهُ أُمُّه أنّ أباه وحشٌ من وحوش الأنانيّة، لأنّه هجرها لصالح امرأةٍ «قذرة» ورفض أن يقيم أيّ علاقة مع ابنه. ولقد صدّق «س» هذه الحكايات، وتحاشى الاتّصالَ بأبيه. غير أنّه، بسبب قوّة الرّسالة الّتي وصلته الآن، لم يعد يدري ما يُصدِّق.

وقرّر أنْ يجيب على رسالة أبيه. وكانت لهجتُهُ في هذه الرّسالة حذِرةً، لكنّه قامَ بكتابتها على كُلِّ حال. وخلال أيّام تلقّى رسالةً ثانية كانتْ بالحرارة والرقّة اللّتين اتّصفتْ بهما رسالةُ أبيه الأولى. وهكذا شَرَع «س» وأبوه بالمراسلة، الّتي استمرّتْ شهراً أو شهرين، وراح «س» يفكّر في السّفر إلى ليون ليلتقي بأبيه وجهاً لوجه.

غير أنّه قبل أن يعقد العَزْمَ على أيّة خطّة محدّدة، تلقّى رسالةً من زوجة أبيه تشعره فيها بأنّ أباه قد مات. وكتبتْ في الرّسالة أنّ الأب قد كان في صحّة سيّئة في السّنوات الماضية، وأنّ تبادلَ الرّسائل الأخير مع «س» قد بثّ في نفسه سعادةً كبيرة، فامتلأت أيّامُه الأخيرةُ بالتّفاؤل والفَرَح.

وكانت تلك المرّة الأولى الّتي سمعتُ فيها عن التّراجعات الهائلة الّتي حدثتْ في حياةِ «س». ففي القطار الّذي أقلّهُ من باريس إلى ليون (حيث سيزور «زوجة أبيه»(*) للمرّة الأولى) كتب لي رسالةً يوجز فيها أحداثَ الشّهر الأخير. ولقد سجّل خَطُّهُ كُلَّ هَزّاتِ القطار، كما لو أنّ القطارَ صورةٌ مطابقة للأفكار الّتي تتسارع في رأسه؛ وهو يصف ذلك في مكان ما من الرّسالة فيقول: «أشعر كأنّني صِرتُ شخصيّةً روائيّة في واحدةٍ من رواياتك».

لم يكن بالإمكان أن تكون زوجةُ أبي «س» أكثر ودّاً ممّا كانتْ عليه أثناء زيارته لها. وقد علم «س» ـ من بين ما علم ـ أنّ أباه كان قد أُصيب بنوبةٍ قلبيّة في صباح عيد ميلادِه الأخير (وكان ذلك في اليوم الّذي فتّش فيه «س» عن عنوانه في جهاز «المينيتيل»). وعلم أيضاً أنّه (أي س) كانَ ـ بالفعل ـ يبلغ من العمر ثلاثةَ أعوام ونصفَ العام حين حصل طلاقُ أبويْه. وراحت زوجةُ أبيه تخبره قصّةَ حياته من وجهة نظر أبيه، وهي وجهةُ نظر تناقضُ كُلَّ ما كانتْ أمُّهُ قد أخبرتْهُ به. فالرّواية الأولى تؤكّد أنّ أُمّه هي الّتي هَجَرتْ أباه، وأنّ أمّهُ هي الّتي منعتْ أباه من رؤيته، وأنّ أُمّه هي الّتي فَطَرَتْ قلبَ أبيه. وأخبرتْ زوجةُ أبي «س» الأخيرَ كيف كان أباه يأتي إلى باحة المدرسة حين كان «س» مايزالُ صغيراً ليلقي عليه النّظرات من خلال سور المدرسة؛ ولقد تذكّر «س» ذلك الرّجل، لكنّه كان يخاف منه لأنّه لم يكن يعرف هويّتَهُ.

وهكذا صارتْ حياةُ «س» حياتيْن؛ فقد كان إزاء روايتيْن: رواية «أ» ورواية «ب»، تحكي كُلّ منهما قصّتَه. ولقد عاشهما معاً، وبالقدرِ نفسه: حقيقتيْن تلغي واحدتُهما الأخرى. فبقي طَوَال حياته ـ ومن غير أن يعلم ـ في عُرْضِ الطّريق.

كان أبوه يملك مخزناً صغيراً للقرطاسيّة (فيه ما يُستخدم في العادة من ورقٍ وموادّ للكتابة، إضافة إلى كتبٍ شعبيّة للإيجار) يوفّر له ما يقيم أَوْدَه؛ وأمّا العقار الّذي خلّفَه فقد كان شديدَ البساطة. غير أنّ الأرقام ليست ذاتَ أهمّية، بل إنّ ما يهمّ هو أنّ زوجةَ أبي «س» (وهي الآن امرأةٌ طاعنةٌ في السنّ) ألحّتْ على اقتسام المال مع «س» مناصَفةً. لم يكن في وصيّة الزّوج ما يتطلّب ذلك؛ ولم تكن مضطرّة من النّاحية المعنويّة إلى أنْ تتخلّى عن قرش واحدٍ من مدّخرات زوجها. لكنّها قامتْ بما قامتْ به لأنّها أرادتْ ذلك، ولأنّ اقتسامها المالَ مع «س» قد جعلها أكثرَ سعادةً ممّا لو كانت احتفظت بِهِ لنفسها.

ـ ٧ ـ

حين أُفكّر في الصّداقة ـ ولاسيّما في حقيقة أنّ بعض الصّداقات تدوم وبعضها لا يدوم ـ فإنّي أتذكّر أنّني طوال السّنوات الّتي قُدْتُ فيها سيّارةً انفجَرَتْ أربعةُ أُطُرٍ فحسب، وكانَ يُرافقني في كُلِّ مرّةٍ الشّخصُ نفسه (وذلك في ثلاثة بلدان مختلفة، وعلى امتداد ثمانية أعوام أو تسعة). لقد كان «ج» زميلاً لي على مقاعد الدّراسة؛ ورغم أنّ شيئاً من الاضطراب والتّعارض لازم علاقتنا على الدّوام، فقد حدث أنْ كنّا في فترة من الفترات صديقيْن حميميْن. وذات ربيع، حين كنّا مانزالُ في سنواتنا الجامعيّة الأولى، استعرنا سيّارةَ أبي «الستايشن» وقُدْناها صعوداً في عراءِ «الكيبيك». في ذلك الجزء من العالم تتغيّر الفصولُ بوتيرة أبطأ، ولم يكن الشّتاء قد انتهى بعدُ. انفجر إطارُ سيّارتنا الأوّل، لكنّ ذلك لم يشكّل مشكلة كبيرةً لنا (فقد كُنّا مُجَهَّزيْن بدولابٍ إضافيّ). ولكنْ حين انفجر إطارٌ ثانٍ بعد أقلّ من ساعةٍ، كان علينا أن نتوقّف في الرِّيف القَفْر المتجمِّد معظم اليوم. في ذلك اليوم استخففتُ بالحادثة معتبراً إيّاها مجرَّد علامةٍ من علامات الحظّ السيّئ. لكنْ حين جاء «ج» إلى فرنسا، بعد أربع سنوات أو خَمْس، ليزورني وليزور «ل» في المنزل الّذي كنّا نرعاه، تكرّر الأمر. فلقد ذهبنا إلى «إكْس آن بروڤانس» (الّتي تبعد ساعتيْن بالسيّارة) طَوالَ النّهار، وحين عُدْنا أدراجنا في ساعة متأخّرة من ذلك اليوم نقود في درب معتم ريفيّ معزُولٍ، انفجر واحدٌ من دواليبنا. قلتُ لنفسي: «إنّها مصادفةٌ بحتة»، وطَرَدتُ الحادثةَ من رأسي. ولكنْ، بعدَ سنواتٍ أربع، أثناء الشّهور الشّاحبة من زواجي بـ «ل»، جاء «ج» لزيارتنا من جديد في ولاية نيويورك هذه المرّة حيث كنّا نعيش مع طفلنا «دانيال». وذات هنيهة ركبنا أنا و«ج» السيّارة لنذهب إلى مخزنٍ نشتري منه ما نحتاجه للعشاء. أخرجتُ السيّارة من الكاراج، ودُرتُ بها حول ممرّ السيّارات ذي الأخاديد المُوحلَةِ ثمّ تقدّمتُ بها إلى حافّة الطّريق. إذّاك فحسب، وفيما رحتُ أتحيّنُ مرورَ سيّارةٍ عابرة، سمعتُ صفيراً لا يدعُ مجالاً للشّك بأنّه صفيرُ هواءٍ مُتَسرِّب. لقد انفجر دولابٌ آخر، قبل أن نغادرَ المنزل هذه المرّة. ضحكنا أنا و«ج» طبعاً، ولكنَّ الحقّ أنّ صداقتنا لم تَسْتَعِدْ عافيتَها بعد هذا الإطار المنفجر الرّابع. أنا لا أقول إنّ الدّواليب المنفجرة كانت مسؤولةً عن ابتعادنا الواحد منّا عن الآخر، لكنّها كانت رمزاً يشير إلى كيفيّة انتصاب الحوائلِ بيننا على الدّوام. لا أريد أن أبالغ، ولكنّي حتّى هذه اللّحظة لا أستطيع أن أُقنع نفسي بأنّ تلك الدّواليب كانت غيرَ ذاتِ معنى. فالحال أنّ صلتي بـ «ج» قد انقطعت، ولم نتحادث منذ أكثر من عشر سنوات.

ـ ٨ ـ

ذات بعد ظُهرٍ لسنواتٍ كثيرةٍ خَلَتْ، تعطّلتْ سيّارة أبي أمام الضّوء الأحمر. كانت ثمّة عاصفةٌ رهيبة تهبّ؛ وفي اللّحظة الحاسمة الّتي توقّف فيها المُحَرِّك، ضَرَبتْ صاعقةٌ شجرةً كبيرةً عند جانبِ الطّريق. فانشقّ جذعُ الشّجرة نصفيْن. وفيما كان أبي يجهد في إعادة تشغيل المحرّك (من غير أن يدري أنّ النّصفَ الأعلى من الشّجرة كان على

(*) في حدّ علمي، لا يُوجد في العربية لفظٌ مقابلٌ لـ «Step - mother» للأسف. وغنيّ عن البيان أنّ اللّفظ الأخير يتضمّن كلمةَ الأمّ الّتي تختفي في الكلمة المعرّبة، فتَضيع بذلك الحميميّة الّتي راحتْ تربط الابنَ بـ «زوجة أبيه» (المترجم).

وشك السّقوط) ضغط سائقُ السّيارة الّتي كانت خلفَ سيّارة أبي ـ وكان يرى ما يوشك أن يحدث ـ على دوّاسة البنزين دافعاً سيّارةَ أبي إلى خطّ التّقاطع [مع السيّارة القادمة من الجهة المقابلة]. وما هي إلاّ برهةٌ حتّى تهاوت الشّجرةُ وحطّتْ في البقعة الّتي كانت سيّارةُ أبي فيها قبل أن تدفعها السّيارةُ الأخرى. إن ما كان يقرب أن يكون نهايةً لحياة أبي أثبت أنّه لا يعدو أن يكون إنذاراً وشيكاً، فصلاً موجزاً من فصول حياته المستمرّة.

بعد عام أو عامين على وقوع هذه الحادثة، كان أبي يعمل على سطح بناية في مدينة «جيرزي». ولا أدري ما حدث بالضّبط (فلم أكن هناك لأشهدَ الواقعة)، ولكنّ أبي زلّ عن الحافّة وبدأ يهوي إلى الأرض. لقد كان متوجّهاً، مرّة أخرى، صوب كارثة محقّقة، لكنّه أُنْقِذ من جديد. فلقد قَطَع سقوطَهُ حَبْلُ غسيل، وخَرَجَ مِن الحادثة ببضع رضّات وخدوشٍ فقط. لم يُصَبْ حتّى بارتجاج في المخّ، ولا بكسرٍ واحد. وفي ذلك العام عينه، استأجر جيرانُنا القاطنون قبالَتَنا رَجُلَيْن ليدهنا لهم البيت. فوقع واحدٌ منهما عن السّطح وقُتِل.

وصادف أنْ كانت البنتُ الصّغيرةُ الّتي تعيش في ذلك المنزل صديقةَ أُختي المُفَضَّلَةَ. وقد ذهبتا ذات ليلةٍ شتويّة إلى حفلةٍ تنكُّرِيَّة (كانتا في السّادسة أو السّابعة من العمر، وكنتُ في التّاسعة أو العاشرة). وتمّ الاتّفاق على أنْ يُقِلّهما أبي بعد انتهاء الحفلة، فرافقتُه في السيّارة. كان البردُ لاذعاً، والطّرقاتُ مغطّاةً بطبقات غدّارة من الجليد، فقاد أبي سيّارته بانتباه وأنجزنا رحلتنا ذهاباً وإياباً من غير أيّ حادث. غير أنّنا ما إن رَكَنّا السيّارةَ أمام بيت البنت الصّغيرة، حتّى وقعت سلسلةٌ من الأحداث غير المتوقّعَة.

فقد كانت صديقة أُختي ترتدي زيَّ أميرةٍ جنّيّة؛ ولكي تُكمل زيَّها الخاصَّ استعارَتْ من أُمّها حذاءً عالي الكعب، فتحوّلتْ كُلُّ خطوةٍ تخطوها إلى مغامَرَة. أوقف أبي السيّارةَ وخرج ليرافقها إلى مدخل بيتها. وكنتُ جالساً مع البنات في المقعد الخلفي للسيّارة، وكان عليَّ أن أخرج أوّلاً. وأذكر أنّني وقفتُ على حافّة الرّصيف، فيما كانت صديقةُ أختي تغادر مقعدها بصعوبة. وما إن خَرَجَتْ إلى الهواء الطّلق حتّى لاحظتُ أنّ السيّارة تتراجع ببطء، إمّا بسبب الجليد وإمّا لأن أبي نسي أن يضغط على مكبح اليد (لا أعلم بالضّبط). وقبل أن أُخبر أبي بما كان يحدث، كانت صديقةُ أختي قد لامَسَتْ بكعب حذاء أُمّها العالي حافّةَ الرّصيف، وزلّتْ، وانْزَلَقَتْ تحت السيّارة الّتي كانت ماتزالُ تتراجع؛ وإذا بها على وشك أن تُسحق تحت عجلات «شيفرولية» أبي. أذكر أنّها لم تنبس ببنت شَفَة. ومن غير أن أتوقّف لأفكّر في الأمر، انحنيْتُ من فوق حافّة الرّصيف، فأمسكتُ بيدها اليمنى وبحركةٍ سريعة سحبتُها إلى الرّصيف. وما هي إلاّ هنيهة حتّى لاحظ أبي أنّ السيّارة تتراجع، فقفز إلى مقعد السّائق وضغط على المكبح وأوقف السيّارة. ولم تستغرق سلسلةُ الحوادث السيّئة هذه من بدايتها إلى نهايتها أكثر من ثوانٍ ثمانٍ أو عَشْرٍ.

وعلى امتداد سنوات أعقبتْ هذه الحادثة شعرتُ بأنّ تلك قد كانت أروعَ لحظاتي: فلقد أنقذتُ حياةَ إنسانٍ. وكنتُ حين أسترجعُ الواقعةَ أُدهش لسرعة بديهتي ولثقة تحركاتي في تلك الأزمة الدّقيقة. ورُحت أستعيدُ، مرّةً بعد مرّة، الشّعورَ الّذي تملّكني حين سحبتُ تلك البنتَ من تحت السيّارة.

بعد عامين على تلك اللّيلة انتقلتْ عائلتُنا إلى بيت آخر، فانقطعَتْ صلةُ أُختي بصديقتها، ولم أر هذه الصّديقة خمسةَ عشرَ عاماً.

ثُمَّ كان حزيران، وكنّا أنا وأختي قد عدنا إلى المدينة لزيارةٍ قصيرة. وصادف أن مرّت صديقتها القديمة لترحّب بنا، فإذا بها قد أضْحَت امرأةً بالغةً في الثّانية والعشرين تخرّجت من الجامعة في بداية ذلك الشّهر. والحقُّ أنّي شعرتُ بالفخر لأنّها قد عاشتْ لتبلغ سنّ الرّشد بسلام. فذكرتُ لها، عَرَضاً، تلك اللّيلة الّتي سحبتُها فيها من تحت السيّارة. وكنتُ أتحرّق فضولاً لأعرف مدى تذكّرها لحادثة اقترابها من الموت. لكنّه كانَ من الواضح، من ملامحها، أنّها لا تذكر شيئاً: تحديقة فارغة، تقطيبة خفيفة، هزّةُ لامبالاة. لم تذكرْ شيئاً!

وأدركتْ أنّها لم تكن تدري أنّ السيّارة كانت تتراجع، ولم تدر أنّها كانت في خطر. لقد وقعتِ الحادثةُ في طَرْفَة عيْن ـ عشر ثوانَ من حياتها ـ وهي فترة لا أهميّة لها، ولم تخلّف أدنى أثر فيها. وأمّا بالنسبة لي فقد كانت تلك الثّواني تجربةً مُبينَة.

وفوق كل هذا، فإنّه يذهلني أنْ أُقرّ بأنّي أتحدّث عن أمرٍ حدث عام ١٩٥٦ أو ١٩٥٧، وأنّ بنتَ تلك اللّيلةِ الصّغيرة تتجاوز الآن الأربعينَ عاماً.

ـ ٩ ـ

إنّ ما ألهمَ روايتي الأولى قد كانَ رقماً خاطئاً. كنتُ وحيداً في شقّتي في بروكلين عصر ذات يوم جالساً أمام طاولتي أحاول أن أكتب، حين رنّ جَرَسُ الهاتف. وإنْ لم أكن مخطئاً، فقد حدث ذلك في ربيع ١٩٨٠، بعد أيّام ليست كثيرةً من عثوري على قطعة العشرة قروش في «ميدان شاي».

رفعتُ السمّاعة، فسألني الرّجلُ على الطّرف الآخر إنْ كان يتحدّث مع وكالة بينكرتون. أجبتُه بالنّفي، وأنّه قد أدار الرّقم الخطأ، وأغلقتُ السمّاعة ثم عدتُ إلى العمل ونسيتُ فوراً كُلّ ما يتعلّق بهذه المخابرة.

بعد ظهر اليوم التّالي رنّ جرسُ الهاتف من جديد. وكان المتحدّث هو الشّخص عينه يسأل السؤالَ ذاته. «وكالة بينكرتون»؟ ومن جديد قلتُ: لا، ومن جديد أغلقتُ السمّاعة. ولكنّي هذه المرّة بدأتُ أُفكّر

فيما كان سيحدث لو أنّي قلتُ: «نعم». وتساءلت: ماذا لو تظاهرتُ بأنّي تحرٌّ من وكالة پينكرتون؟ ماذا لو قمتُ بذلك الدّور؟

والحقّ أنّي شعرتُ أنّني قد بَدَّدْت فرصةً نادرة. وقلت لنفسي: لو أنّ ذلك الرّجل عاد إلى الاتّصال فإنّي سأتحدّث معه على الأقل وأحاول أن أفهم منه ما يجري. انتظرتُ، لكنّ المخابرة الثّالثة لم تتمّ أبداً.

بعد هذا راحت الأفكارُ تدور في رأسي، وشيئاً فشيئاً تفتّحَ عالمُ الممكنات أمامي. فحين شرعتُ في كتابة **مدينة الزّجاج** بعد عام، كان الرّقمُ الخطأ قد تحوّل إلى اللّحظة الحاسمة في الرّواية، الغلطة الّتي تدفع بالقصّة برمّتها إلى الحركة. ففي الرّواية يتلقّى رجلٌ اسمه «كوين» Quinn مخابرةً هاتفيّة من رجلٍ يريد التحدُّث إلى «پول أوستر» التحرّي الخاص. ومثلما فعلتُ، فقد أخبر «كوين» المتحدِّثَ أنّه أدارَ الرقم الخطأ. ويتكرّر الاتصالُ الهاتفيُّ في اللّيلة التالية، ويُغلق «كوين» السمّاعة من جديد. لكنّ «كوين»، خلافاً لي، يُعْطَى ـ في الرّواية ـ فرصةً جديدة. فحين يرنّ الهاتفُ في اللّيلة الثّانية، يقبل أن يلعب اللّعبة. «نعم»، يقول للمتحدّث على الطّرف الآخر من الهاتف، «أنا پول أوستر». وإذّاك، يبتدئ الجنون!

كان كُلُّ شيءٍ على ما يُرام. أنهيتُ الكتاب منذ عشر سنوات، ومنذ ذلك الحين شغلتُ نفسي بمشاريع أُخرى وأفكار أُخرى وكتب أخرى. غير أنّي علمتُ قبل شهريْن فحسب أنّ الكُتُبَ لا تنتهي، وأنّ من الممكن أن تمضي القصص في كتابةِ ذاتها من غير مؤلِّف.

فقد كنتُ وحدي في شقّتي في بروكلين، جالساً إزاء طاولتي أحاول أن أكتب، حين رنّ الهاتف. وكنت في شقّةٍ مختلفة عن تلك الّتي سكنتُ فيها عام ١٩٨٠، ورقم تلفونها مختلفٌ كذلك. رفعتُ السمّاعة، فسأل الرّجلُ على الطّرف الآخر إن كان في مستطاعه أن يتحدّث إلى السّيد «كوين» (Quinn). كان ذا لكنةٍ إسبانيّة ولم أتعرّف إلى صوته. ولبرهة ظننتُ أنّه قد يكون واحداً من أصدقائي يعابثني. أجبتُ: «السّيد كوين؟ هل ما تقوله نكتةٌ أم ماذا!؟».

لا، لم تكن نكتةً. بل كان الرّجل جاداً كُلَّ الجدّ. كان يريد أن يتحدّث إلى السّيد «كوين»، ويرجوني أن أناديه ليتحدّث إليه. كانت لكنةُ المتحدّث ثقيلةً، فأملت أنْ يكون مطلبُه هو السيّد Queen. لكنّ الرّجل أجاب Q-U-I-N-N. تملّكني الرُّعْبُ فجأةً؛ وللحظة أو لحظتين لم أستطعْ أن أُخرج كلمةً واحدةً من فمي. ثم قلتُ أخيراً «آسف، لا وجود لرجلٍ يحمل اسم السيّد Quinn هنا. لقد أخطأتَ الرّقم». فاعتذر الرجلُ لي، وأغلقنا السمّاعةَ كلانا.

لقد حدثَ ذلك حقّاً. وإنّ هذه القصّة، شأنها شأن كُلِّ ما سجّلتُهُ في هذه المفكرة الحمراء، لَهِي قصّةٌ حقيقيّة.